

٥

اقتراب الحرب العالمية

١٩١٤ — ١٩١٣

لقد كانت عاقبة المسلك الذي سلكته فرنسا في مراکش من أوجه العواقب فانه لما ظهر ان الجمهورية تسعى الى الوصول الى الغرض الذي ظلت ترمي اليه في البحر الابيض المتوسط حقبة من الزمان ، استقر رأى دول أخرى ممن زحمت لنفسها في مراکش مطالب بعينها على المضي في تحقيق رغباتها هي أيضاً ، فإيطاليا التي كانت تستند الى اتفاقاتها المعقودة مع فرنسا في سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٢ والى معاهدة راكونيجي المعقودة في سنة ١٩٠٩ تقدمت تعرض أنها تنوى امتلاك طرابلس وبرقة وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ بعثت الى تركيا انذاراً نهائياً طلبت فيه اجراء اصلاحات واسعة النطاق في المنطقتين الآتقتي الذكر وهددت باحتلالهما وكان ذلك العمل فاشحة الحرب المنهوتة بالطرابلسية والتي كانت في الواقع غزواً صريحاً من جانب حكومة روما .

وقبل هذا الحادث ببضعة أشهر كانت روسيا قد خطت خطوة في سبيل الاقتراب من حل مشكلة المضائق بعد الذي كان من فرنسا من التقدم في شمال افريقيا . فانه في ٥ مايو سنة ١٩١١ طلب نيراتوف مساعد وزير الخارجية سazonov من سفير روسيا في باريس أن يستوثق من موافقة الحليفة الفرنسية على هذه المسألة حتى لا تنهض لمعارضة وجهة النظر الروسية والاجراءات التي قد تتخذها روسيا في اللحظة التي ترى فيها من الضروري الانتقال الى محادثات بل الى مفاوضات بعينها . وقد ترددت الحكومة الفرنسية طويلاً قبل أن تجيب لانها كانت تشعر تماماً ان عليها أن تحاذر فيما يتعلق بالاستانة من أجل الموقف الذي تقفه انجلترا حيالها ، ولذا لم تجب الا في ٤ يناير سنة ١٩١٢ حيث أعلنت استعدادها في رسالة كتابية لتبادل الآراء في الترضية التي ترضي الحكومة الروسية نفسها مضطرة لطلبها في شأن مسألة البومفور والدرديفل

على أن يكون هذا التبادل حينما تقضى حالات جديدة بفحص مسألة المضايق .
وهذه موافقة سرنة لم تستطع معها بطرسبرج شيئاً كثيراً .

على أن روسيا كانت في خلال ذلك قد شقت لنفسها طرقاً أخرى لتتقدم
الى عرضها في حينما كان السعي ممكناً ، فانه بينا الباب العالي مشتبك مع ايطاليا
في حرب عرض السفير الروسي في الاستانة فون تشاريكوف فجأة على الحكومة
العثمانية في أول ديسمبر سنة ١٩١١ أن تمنح المضايق في المستقبل لسفن الروسية
الحربية . فساد الهرج والمرج في القرن الذهبي وأكاد أصحاب الشأن أن
إجابة روسيا الى مطلبها هي بداية انتهاء تركيا ذلك أنها لابد أن تقضى حتماً
الى سيادة روسيا للماصمة . لسكن هؤلاء كانوا يخشون في الوقت نفسه نشوب
الحرب . وفي تلك الاثناء كان معتمد المانيا في الاستانة المرشال فون برشتين
واقفاً مع برلين في خلاف شديد لأن هذه كانت تميل الى التساهل مع
بطرسبرج في رغباتها . ولم تقف المسألة الا عند ما تدخل سازونوف الذي
كان في ذلك الوقت في باريس فقد علم وزير الخارجية الروسية من سفيره
في لندن الذي قابله على ضفاف السين ان انجلترا لا توافق على مطلب روسيا ،
ولما كان الخلاف على فارس قد بلغ من ذلك الحين أشده بين بريطانيا العظمى
وبلاد القيصر ، كان يخشى أن تزيد الخطوة العنيفة التي خطاها تشاويكوف
في استيلاء لندن فتراجعت بطرسبرج على عجل .

ومع ذلك لم يقطم سازونوف أملاً بل رجحاً أن يكسب دوره بعمل سياسي
أريب . فلما رجم إلى بلادده ظهر يطالب التوسط بين تركيا وايطاليا للصالح
ويدعو الدول في ١٩ ديسمبر الى أن تنصح لروما والاستانة معاً بعقد هدنة
يسحب بموجبها الأتراك جنودهم ويتركون للمعتدين الجهة التي يطلبونها .
وهذا في الوقت الذي كانت فيه الجنود الايطالية تعافي في طرابلس مركزاً على
جانب من السوء . أما ممثلو الدول الاحدية في القرن الذهبي وكانوا أكثر المأما
بالحالة فقد رأوا بالاجماع ان هذا الطلب لا يمكن الباب العالي قبوله في حين
كانت المانيا تقف حيال هذا المطالب موقفاً ودياً . وقد اشترك العرب أيضاً في

مقاومة الايطاليين ، والعرب ومعهم العالم الاسلامي أجمع كانوا خلية نيران
يروا في أي تساهل من الحكومة التركية خيانة للاسلام ولو تم ذلك لكان
السخط الذي يوجه الي الاستانة قينا بأن يفضى الى انحلال تركيا في الداخل .
ولقد أعقب ذلك ان استدعى تشاريكوف السفير الروسى من منصبه وهو
الذى كان يناهض وزير خارجيته بهذه الافكار وامثالها واخيراً قدمت ايطاليا
شروطاً سهل مداها على الباب العالي رفضها وحلت الهزيمة بسازونوف
في غضون ذلك كان تطور على أعظم جانب من الأهمية يقع في الشرق
الادني ويبشر دولة القيصصر بنجاح عظيم فان البلقان أخذ يتحرك في الوقت
الذى قدمت فيه ايطاليا بلاغها النهائي إلى الباب العالي حتى ان وزير روسيا
المفوض في صوفيا بعث يقول في ٢٩ سبتمبر « انه لن يكون في الامكان وقف
البulgاريين اذا شاع الاضطراب في داخل تركيا » وبعد ذلك بيومين اثنى
بعث هارتفيش من بلغراد يقول انه « مامن حكومة صربية تستطيع أن
تكبح جماح شعبيها اذا احتلت بلغاريا مقدونيا أو نشبت ثورة في الامبراطورية
العثمانية » وزحفت النمسا والمجر على السنجق . فاستغلت روسيا هذه الفرصة
الصالحة لمل كلتا الدولتين على التعاون المشترك

وكان هارتفيش خاصة لا يستقر له قرار ولا يني يعمل في هذه السبيل
وقد جرت مفاوضات في هذا الشأن استغرقت عدة أشهر وكان أهم اغراضها
العمل على التوفيق بين مطالب الامتين وادماج نيات بلغاريا التي كانت
موجهة قبل كل شيء الى تركيا ورغبات صربيا التي كانت موجهة ضد النمسا
والمجر بعضها وبعض . وأخيراً وقع الفريقان معاهدة في ٢٩ فبراير ١٩١٢
وعدت فيها كل من بلغاريا وصربيا الاخرى بمساعدتها عسكرياً « اذا حاولت
إحدى الدول المظلمى (يعنى النمسا والمجر) أن تنتزع أو تحتل ولو بصفة مؤقتة
جهة من الجهات الواقعة في البلقان والموجودة في الوقت الحاضر تحت السيادة
التركية (يعنى السنجق) » وضم الى المعاهدة ملحق سري نص فيه على ان

تتفاهم الدولتان على ما يجب اتخاذه للتدخل فيما اذا نشبت قلاقل في تركيا أو تعرضت الحالة الراهنة في بحيث جزيرة البلقان للخطر ثم ان تبلغا ما يتفق عليه الى روسيا ليكون لها الفصل الاخير فيما يتخذ . هذا الى ما كانت لدولة القيصر من الحق فوق ذلك في أن تسوي ما قد ينشأ بين الدولتين المتعاقبتين من خلاف .

وهكذا ضمنت الدولة السلافية العظمى لنفسها السهر على هذا المشروع السرى وتوصلت الى أن يصبح في امكانها الظهور بمظهر الزعيم لهاتين الدولتين وسرعان ما انضمت اليونان والجبل الاسود الى ذلك الحلف وظهرتاه في اتفاقاته . وهي اتفاقات يعد من أول الموجددين لها هارتفيج ذلك الرجل الذي كان يعلم بالضبط ما يريد . وقد بين في ٥ نوفمبر سياسة روسيا في الشرق الادني في قوله ان هذه السياسة « تسمى في رأيي الى غايتين نهائيتين لا يمتورهما إيهام : الاولى تحقيق المثل العليا لتلك الشعوب السلافية التي أيقظت فيها الحياة المستقلة تحقيقاً يتطلب توزيع الاملاك التركية المكائنة و بحيث جزيرة البلقان على تلك الشعوب ، وثانياً تأدية المهمة التاريخية القديمة التي ظلت روسيا تضطلع بها قروناً عدة وهي تثبيت اقدامها على شواطئ البسفور مدخل « البحرية الروسية » . وليس أحلى من هذا في بيان ما كانت بطرسبورج ترجوه من تعاون دول البلقان . ففي سبيل هذا التعاون كان يراد أن تتحطم تركية أوروبا وأن يشق الطريق لروسيا الى الاستانة . فما لم يكن يحقق بالطرق الدبلوماسية كانت العدة تتخذ لتحقيقه بالقوة وهذا لم يكن معناه تهديد تركيا تهديداً مباشراً فحسب بل كان معناه ايضاً تهديد النمسا والمجر تهديداً غير مباشر . لانه بغض النظر عن انه كان يراد من هذه الامبراطورية من أي عمل مستقل ، فقد كان كل نمو لبلاد البلقان تحت ارشاد روسيا خطراً عائلاً طليعة الحل للعامل المزدوجة التي كانت لا بد أن تصمح في القريب العاجل أول هدف توجه اليه هذه البلاد

الطموحة اعتداءاتها ، واذن فقد كان هنا في طي الحفء ما يهدد دول الوسط بتهديداً كان خليقاً أن تكون له أسوأ العواقب .

وبينما كان العمل متواصلاً لوضع لغم الحاف البلقاني كان الروسيون مثابرين على خدمة مصالحهم الخاصة إذ أنه قبل عقد المعاهدة البلغارية الصربية بزمان وجيز عرض سازونوف في ١٤ فبراير سنة ١٩١٢ على الفرنسيين أن يتفق الفريقان على مسلك مشترك تتخذه الجمهورية ودولة القيصر في حالة ما إذا حدثت أزمة داخلية في تركيا أو أخذت النمسا في مشروع فعال أو نشبت الحرب بين الباب العالي واحدى دول البلقان فكان سازونوف يترسم الخطة التي وضع أساسها الاتفاق المدر في صوفيا وبلغراد . واذن فقد كان وزير الخارجية الروسية يريد أن يعرف موقف فرنسا في تلك الحالات التي أريد بها أن تكون ذريعة للاعتداء وأن يضمن إذا أمكن مساعدة تلك الحليفة الغربية ، لكن باريس على قدر ما يسعنا أن نقرر ، راوغت في الجواب إذ كانت تنظر في ذلك الى لندن وتعلم أن الواجب أن يكون المرء على حذر .

هذا إلى أنهم في باريس لم يكونوا ينظرون بعين الرضى الى مضي صديقتهم الشرقية في تحقيقات رغباتها القومية على مسؤوليتها فن كان يدرجهم أن هزم الصدينة إذا بلغت يوماً أغراضها تعود تأبه بأمال الفرنسيين الخاصة ؟ أليست الازمة المراكشية الاخيرة قد علمتهم ذلك إذ وفقت الروسية حيال المسألة كلها ووقف تحفظ ينم عن عدم الاهتمام ولو أن مسلكهم حيال فرنسا كان من الوجهة الدبلوماسية مسلك و د ، ذلك أنهم لم يكن يعنهم ما تسعى اليه فرنسا في شمال أفريقيا .

وهذه اعتبارات كانت تظهر في فرنسا قوية كلما حي الامل في استرداد الازاس واللورين وحدها الرجاء في تخفيض شوكة المانيا فانه في تلك الايام العصيبة من صيف سنة ١٩١١ لما ارسالت المانيا طرادتها إلى اغادير ورفعت

انكثرت ايدها على أثر ذلك تحذر ألمانيا من نتيجة عملها وتحمي بهذا الجمهورية كانت المعركة الغالية القومية على أشدها فقد كانوا يشعرون من ناحية بقوتهم لما أظهرته الجزر البريطانية على غير انتظار من الاستعداد الكبير للدفاع عن المطالب الفرنسية ولم يشعروا من جراء ذلك بأن في مسلك برلين اذلالا لهم وهكذا كان لابد من استقالة وزارة مونيس بعد اتفاق الكنفو مع الامبراطورية الألمانية لتخلي مكانها لحكومة وطنية جديدة على رأسها ذلك اللورينى الموهوب الطموح القوي العزيمة ريمون بوانكاريه . ومن ذلك الحين أمكن ايزفلسكي السفير الروسى في باريس أن يقرر في ارتياح كيف تحولت الامور تحولا سريعا بعد ان كان في سنة ١٩١١ غير راض عن الحالة النفسية فى الجمهورية . فلقد كتب ايزفلسكي يقول ان الفرنسيين لم يهودوا ينظرون الى مسألة الاكراس واللورين كأنها محاولة . ووصف المجهودات التى يبذلها ميلر ان وزير الحربية لاثارة الحماسة الوطنية بين الاهالى والجيش وهكذا جرى التطور في بلاد حليفة روسيا الغربية الجبرى الذى أرادته هذه الحليفة من زمان طويل .

وكانت مساعي بوانكاريه موجهة فى روسيا الى أن يؤكدها بكل قواه مصلحة فرنسا في التعاون مع الدولة السلافية العظمى . على ان هذه المصلحة لم تكن في الشرق الاذنى أو في الاستانة بل كانت في وقوع الاصطدام مع ألمانيا ذلك الاصطدام الذى يجب أن تشترك فيه روسيا بما يسمها من قوة . بهذه الروح كان رئيس الوزارة الفرنسية الجديد يضع سياسته وقد وسعه ذلك لان انكثرتا قبل كل شئ كانت الى جانبه .

وفي فبراير سنة ١٩١٢ ابتدأت فى باريس المفاوضات لعقد اتفاق بحري بين فرنسا وروسيا . وقد وقع هذا الاتفاق في ١٦ يولييه وقررت فيه الخطة التى يتبعها كلا الاسطولين في حالة الحرب . أما في حالة السلم فقد نص على أن تتبادل هيئتا الاميرالية في الدولتين الاخبار وأن تضعا الخطط معاً . وقد

كان من جراء هذه الاتفاقية أن اتخذت قوى فرنسا البحرية البحر الأبيض المتوسط قاعدة لها فاكثرت فرنسا بذلك مزية حماية صرا كش على انه كما كانت شواطئ فرنسا في الشمال والغرب معرضة بهذه الكيفية فقد سدت الاميرالية البريطانية هذا الفراغ وتوات حماية هذه الشواطئ بعد محادثات مع السلطات البحرية الفرنسية في اغسطس سنة ١٩١٢

وقد توجه بونيكاريه الى بطرسبرج حوالى ذلك ليقيم هناك بمحادثات سياسية تفصيلية مع مسرفى امورها وانسأجه. التى أسداها الى وزير الخارجية الروسية تدل على الاتجاه الذى أسلفنا بيانه فقد نوه قبل كل شىء بأهمية بدء روسيا بعد فرغ ثان للسكك الحديدية التى تؤدى الى الحدود الالمانية لتتمكن بذلك جنودها من الزحف السريع كما تريد هيئة أركان الحرب الفرنسية ، ثم نصح فوق ذلك بالسعي لعقد اتفاق انجليزى روسى على بحر الشمال يعقد فى حالة نشوب حرب مع المانيا ويكون تكملة للاتفاق البحرى الفرنسى الروسى الخاص بالبحر الأبيض المتوسط . فتم بذلك على ان بريطانيا العظمى قد وعدت بمساعدة فرنسا اذا ماهاجمتها المانيا بجيش مؤلف من مائة الف رجل يرسل الى الحدود البلجيكية . وقد اتخذ الحديث اتجاهها ذا دلالة كبرى لما أن أظهر سازونوف رئيس الوزارة الفرنسية على المعاهدة السرية المعقودة بين صربيا وبلغاريا فقد أعلن بونيكاريه بحق ان هذه المعاهدة معاهدة حرب « ران من واجبه أن يؤكد ان رأى العام فى فرنسا لن يسمح للحكومة الفرنسية بالاشتغال بشؤون البلقان الصرفة من أجل عمل عسكري لا تكون المانيا مشتركة فيه ولا يكون عملها هو السبب له » . وهذا صحيح لان المانيا لا البلقان ، هي الهدف الذى ترمى اليه الجمهورية . وقد فهم ذلك سازونوف فى الحال لانه مضى فى مذكرته يقول : « وقد اعلنت من جانبى للوزير اننا نحن الروسين مستعدون للوقوف الى جانب فرنسا فى الظروف التى نصت عليها محالفتنا ، لكننا لن نستطيع أن نبرر للرأى العام الروسى وجوب اشتراكنا

في عمليات حربية يمكن أن تقتضيها شؤون استعمارية خارج أوروبا وفي هذه الحالة تتأثر مصالح فرنسا الحيوية في نفس القارة » ولا يمكن أن يكون أجلى من هذا في التاميمح الى مرا كش .

وقد غاص بوانكاريه منذ دار هذا الحديث الخوف من نشوب حرب البلقان التي كانت تعد معدتها في سكون ولم يحجم بعد ذلك باسهر وبعبارة أخرى في ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٢ عن ان يمد المهادنة الصربية الباغارية وسيلة تضمن بها روسيا سيادتها على البلقان . على أن خوفه لم يكن لتعرض السلام على العموم للخطر بل كان خوفه في الغالب لتعرض السلام لهذا الخطر بصورة تمكن الحليفة الشرقية من السعي الى انتصارات غاشمة فيما يلي المانيا . وقد كان الرأي المقتسط على بوانكاريه هو الذي أعرب عنه جرج لويس السفير الفرنسي في بطرسبرج في سنة ١٩١٠ وكان كما يلي : « ان الاستانة والمضايق يقابلان في المحالفة الانزاس والورين وهذا لم تنص عليه مهادنة ما كتابته لكتنه اسمي غرض يفكر فيه دون أن تجري به الالسنه فاذا سألنا الروسيون في محادثاتنا معهم رأينا في هذا وحب أن نحيبهم أجل ، عند ما تصبحون قادرين على أن تمدوا الينا يد المساعدة في استرداد الانزاس والورين » من ذلك الحين كان بوانكاريه يلح في أن يبلغ بالضبط كل ماتنويه بطرسبرج من اجراءات

قبل ذلك الحريق الذي اشتعلت ناره في الشرق الادني بزمن يسير قام سارونوف في سبتمبر سنة ١٩١٢ الى انجلترا ليزيل في بلهورال بالتحدث الى كبار الساسة الانجليز أسباب الخلاف على أشياء كانت لاتزال قائمة بين الجزر البريطانية والروسيا . وقد انتهز هذه الفرصة ليسأل غراي عما اذا كان مستطاعا ان يتعاون الاسطولان البريطاني والروسي في المياه الشمالية . فكان جواب وزير الخارجية البريطانية بالسلب لان بحر الشرق على الخصوص يمكن

أن يسمح لنا الاصطلياد السفن التي تجري اليه مادام انه قد يسم المانيا ايصاده على من فيه . على انه ابدى تبعا لذلك « ان اسطولنا سيحاصر الشواطىء الالمانية في بحر الشمال اذا لم ينجح - وهذاخير لنا - في حمل الاسطول الالمانى على القتال وسيقوم اسطولنا اذا اشتركنا في الحرب بكل ما هو في الامكان لمحاربة المانيا ومساعدة كل مشترك في الحرب ضدها » وقد ارنأى أن أتم شرط لاشترك بلاده في الحرب هو أن تكون المانيا هي الممتدية لانه يجب أن يحسب حساب الرأي العام . ولقد تفوه ملك الانجليز بمباراة دلت على مبلغ الضغط على تسليحات المانيا البحرية اذ صاح « في لهجة بادية التهيج ان حربا تقع لن تكون وخيمة العاقبة بالنسبة للاسطول الالمانى فحسب بل تكون كذلك أيضا بالنسبة لتجارتها فيما وراء البحار ذلك أن الانجليز سيفرقون كل سفينة تجارية المانية تقع في أيديهم » . وعلى كل فان سازونوف لا بد أن يكون قد اقتنع من هذه النصريحات بان في الامكان دخول بريطانيا المظلمى الحرب ، وأن عداوتها كعداوة فرنسا انما هي لالمانيا قبل كل شىء وانه يجب على روسيا أن تتجنب كل موقف يكون ظاهره التحرش .

والنقطة الاخيرة على الخصوص كانت تستحق أن تراعى في تلك اللحظة لأن الانباء كانت قد وردت من صوفيا وبلغراد كما جاءت من سبيتنجة وأثينا بأن شعوب البلقان تستعد للهجوم على تركيا . وكان سازونوف لم يقش في بهورال من مقدمات مشروع البلقان شيئا حتى لا يكشف الدور الذى تلعبه روسيا . بل لقد ذهب في الحذر الى أبعد من ذلك : لقد اشترك في الاجراءات الديبلوماسية التي كانت باريس مصدرها قبل غيرها لتحول دون وقوع الحرب . وكان اشترাকে في صورة بينة في هذه الاجراءات التي كانت باريس تعنى بها عنانية زائدة . وفي الحقيقة أن روسيا كانت تحتفظ لنفسها بالسكعة الفاصلة في انطلاق شعوب البلقان على تركيا وكثيراً مانوه وزير الخارجية الروسية نفسه بأنه بهذا الاحتفاظ تنزع من الحلف حمته الخطرة إذ يسم بطرسبورج في اللحظة

العصيدة أن تدخل وتقف كالأعند حده . على أن هذا كان على الأقل خديعة للنفس لأن التحالف الذي كانت روسيا تتوق إليه والذي شجعته وهي تدري غايته بين بلدان شرق أوروبا الجنوبي ، كان العامل الأكبر في تحقيقه كما مر بنا هو أمل تلك الشعوب في الفتوحات . فإذا كانت الدولة السلافية المظلمى ستبدد هذا الأمل بالوقوف في وجهه والحيولة دون تحقيقه ، فقد فقدت روسيا زعامتها في شعوب البلقان وهي الزعامة التي عدتها روسيا أكبر ربح لها . وما كان باستطاعة دولة القيصر أن تقول لبلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود قفن فيقطن . بل كان لابد لها من أن تستر وراء المساعى المشتركة التي قامت بها الدول لتخفى عدم ميلها الى اشعال النار التي اعتبر الروسيون اشعالها — كما تدل كل الظواهر — سابقاً لا وانه . أما ان بطرسبورج لم تكن تؤمن بنجاح هذه المساعى كما تدل عليه الاجراءات السرية التي اتخذها الروسيون في بلادهم أنفسهم فلم يكن فيه شك فقد جرت تعبئة واسعة النطاق في منطقة الحدود الغربية على سبيل التجربة ، وفي ٣٠ سبتمبر لما عبأت شعوب البلقان جيوشها تلقى الفيلق الروسى السادس في فرصوفيا خبراً مؤداه أنه اذا أ برق اليه بالتعبئة في المراكز العسكرية الأوروبية من جراء تعقد الحالة السياسية على الحدود الغربية وجب أن يعتبر هذا الأمر أمراً في الوقت عينه بالبدء بقتال النمسا والمانيا . هذا عن باطن الامور ، أما ظاهرها فقد كان اشتراك روسيا في مسعى الدول الاخرى الى السلام . وقد كان الروسيون يطمون أنه مامن سبيل الى نجاح هذا المسعى فكانوا يستعدون لكل احتمال .

ولقد اتخذت الحوادث المجرى المقدر لها فطلبت شعوب البلقان اجراء اصلاحات تتعلق بالاهالى المسيحيين لتتخذ هذا الطاب ذريعة للتدخل ثم انتقلت الى الهجوم غير عابئة باعتراض الدول . فاعلن الجبل الاسود الحرب في ٨ اكتوبر وتبعته في ١٧ و ١٨ منه بلغاريا وصربيا واليونان وبذا تفخ في تلك النار فشب حريقها المشؤوم . وقد رأيت تركيا نفسها مضطرة قبل كل شيء

(م - ١٠)

الى تسوية نزاعها مع ايطاليا ف وقعت الصالح في لوزان في ١٦ اكتوبر بعد أن ظلت برلين تسعى لدى رومه والاستانة عدة أسابيع الى تحقيقه مذلة في هذه السبيل مصاعب على أعظم جانب من الخطورة . وقد بنت ايطاليا بهذا الصالح ماسعت اليه وباتت تمتلك المناطق التي كانت تطالب بها . ثم كان من جراء احتلالها بعض الجزر التركية في البحر الابيض المتوسط أن وقعت في خلاف مع فرنسا فكان هذا سبباً في اقترابها اذ ذاك بعض الشيء الى المانيا . وهكذا أمكن تجديد المحالفة الثلاثية في ٥ ديسمبر سنة ١٩١٢ بناء على طلب رومه مع أن مدتها كانت تنتهي في سنة ١٩١٤ . وتجديد هذه المحالفة مع ايطاليا قد لقي في النمسا والمجر باديء الامر معارضة قوية لكنه قضى عليها باقالة رئيس أركان الحرب كونراد فون هوتزendorف زعيم الناحية الماخذة لايطاليا . ذلك أن وزير الخارجية الكونت ايرنتال كان كالمبراطور فرنسوا جوزيف مستسكاً بالمحالفة الثلاثية بصيغتها القديمة . على أن ارتباط ايطاليا كان دائماً مفككاً والسبب الاكبر في ذلك هو أن إنجلترا كانت في الفريق المعادي .

لقد كانت دول البلقان في حربها الفتحية مع الدولة العثمانية تبرز النصر تلو النصر فكان ما لم يكن في الحسبان يتحقق بسرعة مذهشة . وقد ظل الاتراك يتراجعون عن مواقفهم الدفاعية واحداً بعد آخر حتى اذا أوشك نوفمبر أن ينتهي وقف زحف المنتصرين عند شطلجة الموقف الاخير غير بعيد من الاستانة . وقد كانت نتائج هذه الحوادث على أعظم جانب من الخطورة لاوروبا بأسرها . واذا كانت الدول قد صحت بأنها لا تسمح بحال من الاحوال بأن تتغير الحالة في البلقان فقد باتت فكرة كهذه غير ممكنة تنفيذها بعد الذي كان . وقد كانت بلاد الوفاق الثلاثي متحمسة للمعتدين بقدر ما يصيب هؤلاء من ظفر كما كانت إنجلترا تعطف عليهم «عطفاً قوياً» . وقد أرسل ايزفولسكي من باريس يقول ان هنالك تحولاً جدياً في الحالة النفسية لمصلحة دول البلقان . وفي روسيا حيث كان الاهتمام بهذه الحوادث أشد

بطبيعة الحال قر الرأي على مناصرة الدول البلقانية جهاراً . فدعا القيصر في أواخر أكتوبر سazonوف اليه بتأثير الغراندوق نيقولاى نيقولايفتش وغيره من القواد ليقول له انه يرغب فى أن تقدم الى دول البلقان كل مساعدة ممكنة . وفي الواقع ان انتصارات الدول المتحالفة كانت بطبيعة الامور انتصارات المروسيا على تركيا والنمسا والمجر معاً . فقد أصيبت الدولة العثمانية بهذا النزاع الهائل الذى لم تستطع المساعى الديبلوماسية الخففة أن تحدثه ، واضطرت النمسا والمجر وهي ترى نفسها محوطة بدويلات قوية ناهضة أن تعدل عن كل نفوذ فى الشرق الادنى ، وأن تصبر في هذه الاسابيع صبراً لم يخطر ببال اذ تجنبت أى عمل ينطوي على التسرع مع أنها كانت بازاء تطور يقع حول حدودها ويناهض مصابحتها أعظم مناهضة . وقد كانت برلين لا تنى لحظة عن حض فينا على التزام هذا الموقف وبذلك أمكن التفادى من الاصطدام العام . والافلو أن النمسا والمجر استجمعت نفسها للعمل لما كان شك فى وقوع الحرب العالمية اذ ذلك .

ولقد أفضت الانتصارات السياسية الهائلة التى لقيتها روسيا الى أنهم في فرنسا على الأخص باتوا يرون العدول عن موقف التحفظ الذى كانوا يقفونه الى ذلك الحين حيال سياسة روسيا البلقانية . وهذا التفكير كانت تلاميذ الحقائق الواقعة ويقتضيه حكمها المنطقى القاسى . أو لم يكن الفرنسيون يخشون أن تحقق حليفهم الشرقية بالفعل أغراضها القومية ؟ فان جانباً من رغبات تلك الدولة السلافية العظمى وهو بسط سلطانها على الدول البلقانية الناهضة كان يابح في آخر خريف ١٩١٢ وكانما قد تحقق . والجانب الآخر وهو الاستانة كان وشيك التحقيق . فهل كان ينبغي أن تفقد باريس بالمعارضة والرفض الفاتر الصلة والأمل في جبر المنافع لنفسها هي ؟ لقد حاول بوانكاريه أول ما حاول أن يعمل لحسابه بلبعة ماهرة . فانه لما ظهر على فينا أنها تريد أن تحظر على صربيا التقدم الى أوروبا أو بعبارة أخرى الى البحر الابيض المتوسط

حتى لا تترك تلك الجارة تتقوى ، طالب روسيا في ٤ نوفمبر ١٩١٢ أن تقرر مع فرنسا وإنجلترا أن هذه الدول « ستقاوم كل دولة عظمى تضم إلى أملاكها شيئاً من أملاك تركيا » فافرض خطأ أن النمسا والمجر تدبر خطة للتوسع . وهذا الاقتراح كان يعد بمثابة تساهل كبير نحو روسيا مادام أنه موجه ضد مملكة الطونة . ذلك أنه دل - على تقيض تصريحات بوانسكاريه التي طاه بها في أغسطس في بطرسبورغ - على أن الجمهورية الفرنسية تريد أن تكون منازعات الباتقان من الآن فصاعداً سبباً يحمل فرنسا على الحرب إذا ما حدثت النمسا والمجر نفسها بالأقدام على عمل ما . بيد أن بوانسكاريه كان في الوقت نفسه ينوي الحيلولة بين روسيا وبين التقدم لأن هذه الدولة هي في جملة الدول التي تفكر في الحصول على جانب من أملاك تركيا ما تعلق الأمر بالمضائق . على أن سازونوف تبين هذه الأحيولة في الحال ، فأعلن أنه لا يجب « ألف في الكلام » لأن عبارة « ضم دولة عظمى لشيء من أملاك تركيا » يمكن أن تنسحب على روسيا نفسها في مسألة الدردنيل « ولكنه تناول من اقتراح فرنسا موقفها ضد النمسا والمجر ذلك الموقف الذي ترحب به بلاده كل الترحيب ونوه في رده على فرنسا بضرورة له وارتياحه إليه .

ولقد كان هذا درساً لبوانسكاريه فسرعان ما رأى نفسه مضطراً إلى أن يخطو خطوة أخرى إلى الامام . لأن الحصومة بين النمسا وصربيا كانت قد اشتدت إذ كانت النمسا قد حشدت من أمد طويل جنوداً على الحدود الصربية لتستطيع الضغط على تلك الجارة العنيدة ، فقوت في باريس الريبة في خطط الحكومة النمساوية ، وجعلت رئيس الوزارة الفرنسية ينوه في كتاب إلى السفير الروسي مؤرخ في ١٠ نوفمبر بأن الجمهورية تنتظر من روسيا « التي يهملها الأمر كل الأهمية » اقتراحات بعينها في صدد الاجراءات التي يجب أن تتخذ ليسع فرنسا النظر فيها . وقد تحدث بعد ذلك إلى ايزفولسكي ففسر له هذه العبارة الغامضة بأن على روسيا أن تكون البائدة بالعمل وبعبارة أخرى أن ترد على كل

اعتداء على صربيا من جانب النمسا بعمل حربي وأن فرنسا لا ترد في الوقوف في صفها اذا تبينت من جانب المانيا تدخلا عسكريا . ولما أذيع من بلغراد في أوائل ديسمبر الخبر الغير الصحيح القائل بأن مملكة الطونة عاقدة النية على غزو صربيا أبدى بوانسكاريه اهتماما شديدا جداً حتى انه لام حليفته الشرقية على أنها تقف موقفاً ينطوي على عدم المبالاة ولكن ملييران وزير الحربية الفرنسية أكد للملحق العسكري الروسي في باريس : « أننا (فرنسا) مستعدون فيجب أن يكون هذا في الحساب » وقد أمكن ايزفلسكي في ١٨ ديسمبر أن يلخص أثر ذلك في نفسه بالكلمات الآتية : « اننى لم أعد في الايام الاخيرة مضطراً الى مناهضة الفكرة القائلة بأن فرنسا يمكن أن ترى نفسها داخلية في الحرب لمصلحة غيرها ، اضطرارى الى المحاذرة من أن تقف موقفاً سلبياً أكثر مما يجب حيال مسألة تمس مراكز الوفاق الثلاثي وهيئته » !

وقبل ذلك بزمان وجيز كان بوانسكاريه قد ضمن في لندن ما يحمي ظهره . فان المعاهدة السرية التي كانت قائمة بين بريطانيا العظمى وفرنسا على مراكش والتي كانت الجمهورية الى ذلك الحين تجنّب منها ثمرات طيبة ، كانت بفعل الحقائق الواقعة قد ألم بها القدم نوعاً ما لأن باريس كانت قد حققت في شمال افريقيا آمالها ، ومن ثم كان أبناء السين يسمعون منذ أمد طويل الى إيجاد رابطة جديدة تجعل صلاتهم بالامبراطورية البريطانية أحكم مما كانت . ولم يكن ممكناً الحصول على مخالفة بالمعنى الصحيح لأن غراي كان يفهم جيداً مبلغ اعتماده على الرأي العام في بلاده ، ذلك الأمر الذي خبره في سنة ١٩١١ بصفة خاصة . على أنه أقر التحالف في كتابين خاصين مؤرخين في ٢٢ و ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٢ تبادلها مع السفير الفرنسي في لندن المسيو بول كيبون إذ صرح بأنه موافق على انه اذا اتفق أن بات لدى أى من الحكومتين (فرنسا وانجلترا) أسباب وجيهة تتوقع معها اعتداء من جانب دولة ثالثة بدون وجه حق أو تهديداً لاسلام العام ، فانها تباحث فيها الحكومة الأخرى لتنظر فيما اذا كان ينبغي عليهما

أن تهملاً ممّا على دفع الاعتماد وحفظ السلام ، وكأئنة ما كانت الاجراءات فيجب أن تكون الدولتان مستمدتين لاتخاذها في حالة الاعتماد . فاذا كانت هذه الاجراءات تتطلب عملاً مسلحاً نظر في الخطط التي تضمها هيئتنا أركان الحرب وكان على الحكومتين أن تفصلاً في مبلغ المدى الذي ينبغي أن يذهب اليه في تنفيذها ! ومن ياق نظرة على هذا يستبين كيف ان هذا الاتفاق كان يناسب الحوادث التي تقع في القارة ويدرك كيف كان حكم بوانكاريه عليه . فلقد كان يتوقع أن تخطو النمسا خطوتها ضد صربيا فيفسرها بسهولة بأنها لهديد للسلام العام بخاصة عند ما تقدم روسيا للعمل ، وهو ما كان رئيس لوزارة الفرنسية يرغب فيه ، فتقف في وجه مملكة الطونة وتدعو بذلك ألمانيا الى الميدان . فعندئذ تكون المناسبة قائمة « للنظر » المشترك في المسألة مع إنجلترا .

كانت دولة القيصر تنظر الى الحالة في الساعة العصيبة بأهدأ من العين التي كانت تنظر بها الجمهورية اليها فقد كانت بطرسبرج تعلم حق العلم أن فيينا ليست مصممة على الذهاب الى أبعد مدى . هذا الى ان روسيا لم تكن مسلحة بالقدر الكافي على الرغم من المهمة الشديدة التي كانت تبذل لاصلاح الجيش الروسي واعداده للحرب الاوروبية . ولقد كانت تأمل ان تعرض لها الفرصة في هدوء للتقدم نحو الاستانة وخدمة مصالحها وحدها في هذا الباب . ومن ثم حدث أن فرنسا كان يلوح عليها عقب ذلك ببضعة أشهر انها أقل ميلاً الى الحرب العالمية من الدولة السلافية العظمى . أما من الجهة الاخرى فقد صرح الامبراطور غليوم الثاني في جلاء تام انه لن يزحف على باريس وموسكو بحال من الاحوال من أجل الخصومة القائمة بين الصرب والنمسا ، وانه ليس ملزماً بمساعدة حليفته الا في حالة ما إذا لم تتحرض النمسا بالروسيا . وهكذا كان موقف ألمانيا سلباً لاتقادي من الحريق العالمي .

وفي ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٢ اجتمع في لندن ممثلو الدول العظمى والدول

المتحاربة في البلقان ليتفاوضوا في الصلح . لكنه في ٧ يناير سنة ١٩١٣ قطعت المفاوضات لان تركيا أبت تسليم أدرنه لباغاريا فتجددت الحرب وزحف الحلفاء مرة أخرى يحف بهم النصر حتى تمت الهدنة في ١٦ ابريل . على أن الجبل الاسود قرر وحده الزحف والاستمرار في القتال ليغزو اشقودره رغم ارادة الدول العظمى جميعاً . ولم يسلم الملك نيقولا المدينة إلا بعد أن هددت النمسا بالزحف عليه . الى هنا لم تكن قلاقل البلقان قد انتهت بعد فقد أخذ المنتصرون أنفسهم يتنازعون على الغنيمة نزاعاً شديداً وعلى رغم كل المساعي التي قامت بها روسيا للمحافظة على الاتحاد بين تلك الدول التي كانت الى ذلك الحين سميدة بمحايثها ، فان البغار انقلبوا في ٢٩ يونيه على حلفائهم السابقين الذين بادرت رومانيا لمساعدتهم ، فهزم البلغار واضطروا بصلح بخارست النهائي الذي وقعت معاهدته في ١٠ اغسطس سنة ١٩١٣ أن يقنعوا بأقل مما أصاب شعوب البلقان الاخرى بكثير

وهذا الغرور الاليم الذي أبدته صوفيا في النهاية بتحويلها ، لم يمنع روسيا من الارتياح الى مجرى الحوادث في مجموعها فقد أنجزت جانباً كبيراً من العمل الذي كانت تقصد فيه الى توسيع نفوذها في الشرق الادنى . فتركيا كادت تخرج حينئذ من أوروبا حتى كانوا في بطرسبرج يتوقعون انحلالها العاجل . والنعم المهم الآخر الذي أصابته روسيا كان فيما نالته صربيا من قوة زادت في نطاقها وعدد سكانها زيادة كبيرة . أما دولة البانيا التي أوجدتها الدول العظمى فقد كانت في الميزان قوة ضئيلة .. واضعاف بلغاريا في اللحظة الاخيرة كان في مصلحة روسيا أكثر منه ضدها المصلحة لان أحب أبناء الجامعة السلافية وهو الشعب الصربي بات إذ ذاك وليس له بين الدول المذكورة حديثاً منافس خطر .

أما الاستانة نفسها التي هي آخر أغراض روسيا وأهمها شأنًا ، فلم تقترب منها روسيا في الواقع أكثر مما كانت فان الدول الاخرى افترضت من تلقاء

نفسها أن دولة القيصر تريد التقدم الى تلك الناحية مسيطرة - حرب البلقان
فقد تمت اقتراحتها . فأما فرنسا فقد تعهدت في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٢ بتعويض
حليفها (بكل همة طبعاً) لكنها رجت أن تبلغها بطرسبرج الاجراءات التي
تتخذها قبل تنفيذها كما كانت الحال الى الآن . وأما إنجلترا فقد ارتأت في
الوقت نفسه تقريباً أن تكون العاصمة التركية دولية لتحول بذلك ومن أول
الامر دون امتلاك روسيا لها . والنمسا عرضت على روسيا أن تترك لها
الحرية التامة في العمل فيما يتعاق بالمضايق إذا هي أعلنت أن لامصلحة لها في
الجزء المهم من شبه جزيرة البلقان .

هذه الاقتراحات كانت بطرسبرج تعالجها في تحفظ ينطوي على الحذر لانها
كانت تريد الطريق لنفسها حرة . وقد ارتأت سازونوف بادية الامر أن
تكون المهمة التالية هي معالجة مسألة المضايق كما عولجت في سنة ١٩٠٨ أي تحويل
الدول الواقعة على سواحل البحر الاسود الحق في أن تدخل سفنها الحربية
وتخرج من المضايق في زمن السلم بشروط معينة تضمن سلامة الاستانة .
فلما جرت حوادث الحرب بعد ذلك مجراها البعيد ذهب هو أيضاً الى أبعد
مما كان قد ذهب ، وفكر في الزحف الفجائي . وقد كان الخطر قائماً في أواخر
مارس سنة ١٩١٣ من أن تم بلغاريا يدها نحو الاستانة فنظروا إذ ذاك في
الروسيا بصفة جدية في امكان ازال جنود في العاصمة التركية لكنهم سرعان
ما عدلوا عن تنفيذ ذلك من جراء الصعوبات الحربية الفنية التي لم يمكن التغلب
عليها . وفي يوليو سنة ١٩١٣ انتهزت الامبراطورية العثمانية فرصة قتال دول
البلقان بعضها لبعض لتسترد أدرنة فخلق سازونوف مسألة أرمنيا وطالب
الباب العالي باجراء اصلاحات فيها وأراد بهذه الكيفية أن يوجد لنفسه حجة
ديبلوماسية للتقدم الى آسيا الصغرى لكن بريطانيا العظمى أمرته هنا بالوقوف
كما كانت الحال دائماً لانها وصفت هذا العمل بأنه بداية لحل تركية أسبأ أيضاً
وبذا بقيت أهم مسألة بدون حل بالنسبة لروسيا .

والآن فقد مر بوزير الخارجية الروسية نفس التطور الذي مر بسلفه ايزفولاسكي في سنة ١٩٠٨ اذ حال اصدقاء بلاده السياسيون دون سيره وحده في طريقه فلم يجد مفرأ من أن يلتزم الوجهة التي ترتئها لندن وباريس وهي مخاصمة كتلة دول الوسط وبخاصة ألمانيا فقد يصبح في الامكان التغلب على مقاومة المجلتزا وفرنسا في مسألة المضائق اذا أذر المرء مصالحهما .

وأما فرنسا على الاخص فتد فعلت كل ما يمكنها لجر روسيا الى الطريق الآنف الذكر ففي يناير سنة ١٩١٣ انتخب بوانكاريه رئيساً للجمهورية وكان قد أثر ايزفولاسكي في المعركة الانتخابية لصاحبه اذ أقنع الصحافة الباريسية بمجادلاته الطنانة بمد رشوتها . وقد أعقب الانتخاب مباشرة ان استدعى جورج لويس سفير فرنسا في بطرسبورج الى ذلك الحين من منصبه لان رويته ووضعه مصلحة فرنسا وحدها لتسبب عينية دائماً كان قد أوغر صدر ايزفولاسكي عليه . وحل محله دل كاسيه عدو ألمانيا القديم الذي كلف بأن يحمل القيادة العسكرية الروسية نهائياً على مد السكك الحديدية اللازمة لخطط الحربية الى الحدود الغربية وان يقدم في هذه السبيل الوسائل اللازمة . وفي مقابل ذلك قررت الجمهورية جعل الخدمة العسكرية ثلاث سنوات كإمالة سر زيادة الجيش الفرنسي زيادة هامة . ولكي يبرر هذا العمل في نظر الجمهور جعلت الاموال الروسية تفيض على الصحف . وقد حقق دل كاسيه ما أريد منه في خلال بضعة أشهر . ففي ديسمبر سنة ١٩١٣ حصلت روسيا على خمسمائة مليون فرنك ووعدت في مقابلها بأنعم مد الخطوط الحديدية الموجهة ضد ألمانيا في خمس سنوات . ولقد جرت بين سفير الحليفة الغربية وسازونوف أحاديث مفصلة عن الاغراض التي يرمي اليها كلا الفريقين من الحرب العامة اذا وقعت مثل هذه الحرب ، واستبانت الدولة السلافية العظمى مبلغ ما يمكن أن تجنيه من إحكام صلاتها بهؤلاء الاصدقاء

بهذه الكيفية تحولات الامور في بطرسيرج تحولا مشووماً عجل به

حدث مع ألمانيا نوره فمالي : وقم في تركيا أثناء الحرب البلقانية انقلاب
داخلي قررت معه الحكومة الجديدة أن تسير بالبلاد في سبيل التجديد
سيرة جدية فولت وجهها شطر عدة دول أجنبية ترجوها أن تضم تحت تصرفها
طائفة من كبار الفنانين في مختلف الفنون . فطلبت من إيطاليا شرطة لسوريا
ومن فرنسا فنيين لمليتها ومن إنجلترا آخرين لأسطولها ومن ألمانيا لمارفها
وجيشها . وقد تقرر أن ينظم الجيش التركي جنرال ألماني على رأس بعثة من
الضباط الألمان ، فاختار الامبراطور غليوم الثاني في ٣٠ يونيو سنة ١٩١٣
الجنرال ليان فون سندرس . وكان الماهل الألماني قبل ذلك بشهر قد أفضى
إلى قيصر روسيا ، مناسبة مقابلة شخصية بينهما ، برجا الباب العالي ومرافقته
أي الامبراطور على اجابة هذا الرجا . ولما كان لا مناص من اجابة هذا
الرجاء احتج سازونوف احتجاجاً شديداً ، ولما عيذت الحكومة العثمانية
ليان فون سندرس في ديسمبر سنة ١٩١٣ أعاج ذلك التعيين وزير الخارجية
الروسية اهاجة شديدة وكان أهم اعتراض له هو على أن يكون الجنرال الألماني
قائداً للفيلق التركي الاول المرابط في الاستانة . وفي ١٣ ديسمبر قام بناء على
رغبته ممثلو دول الوفاق الثلاثي في الاستانة بمسعي مشترك وسألوا الصدر
الأعظم عما اذا كان استقلال الامبراطورية العثمانية قد ضمن في الاتفاق
المعقود لتوظيف الضباط الألمان وهل العقد يحس الحلة الراحة لدردييل ؟
ومع انهم في القرن الذهبي لم يكونوا ميالين الى التساهل فان الصدر الأعظم
حمل أخيراً بمسعي ألمانيا على أن يسحب من ليان فون سندرس قيادته على
الفيلق الاول وأن يعهد اليه بالاعمال التي يتطلبها اصلاح الجيش فقط .
والسبب الحقيقي الذي من أجله اعترض سازونوف كان في أن تقوية الباب
العالي من الوجهة الحربية الآن وبمد أن زعزت دول البلقان مركزه
الوزعة المطلوبة ، لم يكن فيما يتعلق بمسألة المضايق مما يطيقه سازونوف اذا كان

يخشى اذا جعل ليمان فون ساندرس مقره في الاستانة أن يكمل الاستحكامات حول هذا المكان المشتهى وهذا يمارض مع نياته الخفية .

في الوقت الذي كان هذا النزاع قائماً في اثنائه كتب سازونوف في ٨ ديسمبر سنة ١٩١٣ تقريراً مفصلاً الى القيصر أبان فيه أنه ينبغي أن لا تسمح روسيا لدولة أخرى بالسيادة على المضائق وأنها (أي روسيا) يجب أن تستعد للتقدم عسكرياً نحو البوسفور . وهذا يفسر الموقف الشديد الذي وقفه سازونوف في مسألة ليمان فون ساندرس على أنه سرعان ما استخلص من التجارب التي مرث به أن مسألة المضائق يصعب ان تتقدم الا من طريق المشاكل الاوربية . ولذا استحوذت عليه فكرة الحرب العظمى باعتبار انها الطريق المؤدية الى تحقيق اغراض بلاده القومية نهائياً . فلقد رأى في تلك الاثناء كيف ان روسيا لم يسعها وحدها ان تقوم بشيء كثير فضلاً عن ان عناية الالمان بتجديد الامبراطورية العثمانية قوي فيه الاعتقاد بأن مضى روسيا مع الهجرة وفرنسا ضد دول الوسط هو الوسيلة المناسبة لتحقيق الغاية التي تسعى اليها . وقد اكد في اجتماع للوزراء في ٢١ فبراير ١٩١٤ مرة اخرى انه لا يبع احدا ان يفرض ان عملياتنا الموجهة ضد المضائق تتم بدون حرب اوربية عامة . فما كان يداور له من تلقاء نفسه فيما مضى من الزمان اصبح الآن ضرورة لازمة بات من المقرر انها تهدد السلام الاوربي اعظم تهديد . حتى لو كان الروسيون لم يرغبوا مباشرة في حرب عالمية فاهم كانوا يرون هذه الحرب الأداة الأخيرة لتحقيق اعظم رغباتهم .

ولقد كان خطر السياسة الروسية في البلقان يتفاقم بانبعث الروسيين نحو الآستانة . فهنا في البلقان كان يحدث كل ما يمكن أن يخطر بالبال لاساءة مراكز النمسا والمجر ، كما كان العمل في على قدم وساق في عدة أماكن . فعنى أولاً بأمر الصرب عناية خاصة ، إذ كان هذا الشعب لم تشبع انتصاراته وما فاز به في حرب البلقان بل قوت نهجه الى المزيد . فانه في خلال المفاوضات

في تقسيم الغنيمة التركية كانت بلغراد لاتفى عن تقديم مطالب جديدة كانت لندن وباريس أيضاً تريان شططها كما كانت هذه المطالب تزيد الهوة بينها وبين بلغاريا اتساعاً . وقد كانت بطرسبورغ تنصح بالاعتدال لكن هذه النصائح كانت من أجل المستقبل . فقد كتب سازونوف الى هارتفيش في ٦ مايو — على سبيل المثال — يقول : « ان صربيا قد قطعت توة أول مرحلة في طريقها التاريخي ، ويجب عليها لتحقيق غرضها أن تخوض غمار حرب هائلة يمكن أن يتعرض فيها كيائها كله للخطر . والارض التي تبغها صربيا موجودة ضمن النمسا والمجر بحالتها القائمة اليوم . والزمن يعمل في مصاحبة صربيا وخراب أعدائها الذين تدل حالهم على التفكك » . وعقب ذلك بستة أيام أرسل وزير صربيا المفوض في بطرسبرج الى حكومته برقية تنفق وماتقدم . قال : لقد أخبرني سازونوف مرة أخرى اننا يجب أن نعمل للمستقبل واننا سنحصل من النمسا على أرض كثيرة !! ولكي تجعل هذه الدولة البلقانية التي تطورت تطوراً قوياً أقوى مما هي حاولت الروسية في الأشهر الاولى من سنة ١٩١٤ أن تمهد لاندماج الجبل الاسود فيها . وهو ما اعتبرته النمسا مما لا يمكن السماح به .

وكانت النمسا إذ ذاك قد أزعجها قبل كل شيء تلك الحركة التي كانت آخذة في الظهور بشدة ازدادت على مر الايام ، وهي الحركة التي كانت ترمي في صربيا الى تحرير الصرب النازلين في بعض بلاد آل هابسبرج فعادت الى الأخذ بفكرة ايرتال القديمة وهي تحريض بلغاريا على صربيا . وقد كان ذلك سبباً في اختلاف الآراء مع برلين اختلاف شديداً الى حد ما . وحقيقة انهم كانوا في برلين مستعدين لأن يوحّدوا في صوفيا ميلا الى تعضيد الدول الوسطى بأن يعطوها قرضاً لكنهم لم يريدوا أن يستمعوا الى اغراض موجهة إلى بلغراد فعّدوا من جديد بنصحوز لوزارة الخارجية النمساوية بالتحويل . ولقد أصاب صرّكز النمسا والمجر صدمة حاسمة لما أن وفق سازونوف الى فصل رومانيا عن دول الوسط . فان هذه الدولة التي كانت كبرى دول البلقان

كانت كما هو معروف منذ ايام بسمرك مرتبطة مع دول المحالفة الثلاثية باتفاق جدد مرة أخرى في سنة ١٩١٢ ولكنه منذ تلك السنة أخذ وزير الخارجية الروسية يعمل باستمرار على زعزعة آخر حجر في صرح المستشار الامبراطوري الالمانى الاول فدخلت رومانيا ومؤتمر لندن بناء على مسعاه وراأت هذه نفسها بهذا المسمى داخله ضمن دائرة الدول الاوروبية . ثم عرف سازونوف في خلال مفاوضات بطرسبرج بين ممثلى دول الوفاق الثلاثى ودول الوسط — تلك المفاوضات التى جرت في سنة ١٩١٣ وكان موضوعها مطالب رومانيا الخاصة بتوسيع مناطقها — تقول عرف سازونوف كيف يخلق دائماً في بخارست شعوراً ودياً بالنسبة للروسيا . ولقد ساعد سفير انجلترا في بطرسبرج بوكنان الذى كان يمثل بريطانيا العظمى في تلك المفاوضات على اقناع رومانيا بانها يسعها في دائرة المحالفة الثلاثية أن تخدم مصالحها خيراً من خدمتها في أية ناحية أخرى . ولقد كتب ايزفولسكي في ١٤ اغسطس سنة ١٩١٣ الى سازونوف ينئى عليه بقوله : لقد كنت دائماً اعتبر فصلك رومانيا عن النمسا آية تتوج أعمالك السياسية . وفى أواسط سنة ١٩١٤ وصل هذا العمل الى القمة لما منح كارل ملك رومانيا عصا المارشالية فكان هذا تكريماً له كما كرم ولى عهده لما دعي الى اراحة الستار عن تمثال في روسيا . وأخيراً زار القيصر نيقولا الثانى الملك كارل فى أول يونيه سنة ١٩١٤ فى كونستانزا ، جرى اذ ذاك لسازونوف الذى كان يصحب قيصره حديث طويل مع رئيس الوزارة الرومانية براتيانو سأل في سمياعة وزير الخارجية الروسية بصريح العبارة « كيف يكون موقف رومانيا فى حالة وقوع حرب بين النمسا والمجر وبين روسيا اذا اضطرت روسيا الظروف الى بدء القتال » ولئن كان برتيانو راوغه فى الجواب واندھش من امكان وقوع حرب جديده فقد جعله يستشف من رده أن بلاده ليست مكثمة بحال من الاحوال بمساعدة النمسا والمجر . فارتاح سازونوف الى هذا وعد زيارته لكونستانزا بحق توفيقاً كبيراً . ذلك انه في اللحظة التى لم تعد فيها النمسا والمجر تستطيع

أن تعتمد على رومانيا تزعم آخر عماد حقيقتي كانت تستند اليه لتدعيم نفوذها في الشرق الأدنى ولم يصبح أمامها إلا بلغاريا غير المضمونة والتي كانت تخطب ودها بحاراه و صربيا العدو . وبذلك تحطم آخر أمل في صدد تيار مساعي الجامعة السلافية الدائم للبلقان .

ولقد كان سازونوف كلما ألهم النظر في الاحتمالات التي تؤدي به الى تحقيق أغراضه السياسية — تلك الاحتمالات التي كان أحدها وهو «الاصطدام المسلح» يلعب في تفكيره دوراً كبيراً — يجهد أمامه رقماً كبيراً مجهولاً لا يريد أن يدخل في حسابه دخولا يطمئن اليه . وذلك الرقم هو انجلترا . فقد ذكر فرنسا في تقريره الذي أسلفنا الإشارة اليه والذي بعث به الى القيصر بأنها معين يعتمد عليه في حالة الحرب : وقد صرح سازونوف بصريح العبارة في اجتماع لمجلس الوزراء عقد في ١٣ يناير سنة ١٩١٤ بمناسبة التوت الذي حدث من جراء ايمان فون ساندرس ، انه يسمع الحكومة الروسية ان ينتظر من جانب الجمهورية «أعظم ما يمكن من مساعدة فعالة ... فقد أكد المسيو دل كاسيه باعم وزير الخارجية الفرنسية أن فرنسا ستفعل ما تريده روسيا» . وقد جاء في تلك الوثيقة الآتفة الذكر فوق الذي ذكرناه الا أن في معرض الكلام عن بريطانيا العظمى أن ولاية الامور في روسيا يجب «قبل أن يتخذوا خطوات حاسمة أن يتأكدوا من مساعدة وزارة لندن لان الوزير يرى أن اشتراك الفعل يلوح غير مضمون» . وهذا القول عن انجلترا بعد ذلك الموقف الذي وقفته حيال مسألة المضائق وأشرنا اليه مراراً لا يبعث على الدهشة بحال من الاحوال . على أنه من أجل هذا الموقف فعلت روسيا كل شيء من شأنه تذليل تلك الصعوبة القائمة من ناحيته .

ففي ابريل ١٩١٤ انتهز وزير الخارجية الفرنسية المسيو دومرج زيارة ملك الانجليز لباريس ليقيم السير ادوارد غراي الذي كان حاضراً هذه الزيارة

بضرورة عقد اتفاق بحري مع روسيا ، وكان ذلك بناء على رغبة القيصر
نيقولا الثاني الخاصة . فما كان أشد دهشة ممثلي الجمهورية الذين حصروا
المحادثات التي أجريت لهذا الغرض، حين رأوا «استعداد السير ادوارد غراي
الجلي الاقدام على التقرب من روسيا وجعل علاقاته بها أوثق مما هي » وفي
الواقع أن المفاوضات بدأت في هذا الاتفاق عقب ذلك مباشرة واتفق الفريقان
على التفاصيل . وقد غنى الروسيون في خلالها بإسداد الاستار في حيلة
ومهارة على موقفهم حيال مسألة المضائق لأنهم كانوا يحاذرون بطبيعة الحال
أن يضيع من أيديهم الغنم الهائل الذي يكسبهم إياه عقد اتفاق ثابت مع الجزر
البريطانية . وهكذا عادت سياسة سازونوف فتقدمت تقدماً هاماً حاسماً . وبات
في سعيه الى الامام لا يرحاه شيء كتما كده من الدولة البريطانية وقت الشدة
انه لو تمثل المرء حوادث السنوات الاخيرة التي أتينا على وصفها هنا لوصل
الى أن أوربا كانت تسير تدريجاً الى حالة لاشفاء منها . فان الانقسام الذي
طالما ذكرناه كان قد أفضى الى حالة من المنازعة الدبلوماسية المتبادلة باتت
منذ ابتداء حروب البلقان بصفة خاصة تهدد على الدوام تقريباً بانفجارات .
وظاهر في هذا الصدد كل الظهور أن ارادة العدوان كان متجلية في جانب
الوفاق الثلاثي وعلى الاخص من ناحية روسيا . فلقد كان من شأن الانقلاب
الاساسي الذي وقع في الشرق الادنى لمصلحة روسيا ان اضطر النمسا والمجر
ومعها ألمانيا الى الوقوف موقف الدفاع تماماً . واذا نظرنا الى الجانبين من
الوجهة السياسية المحضة ألقينا أن كفة دول الوفاق الثلاثي كانت راجحة
كثيراً ووجدنا أنها كانت كذلك أيضاً من الوجهة الحربية . فان القوى البرية
التي كانت على استعداد في المجترة وفرنسا كانت في رأي «أعظم الثقة الفرنسيين
والبريطانيين على السواء» معادلة لقوى الالمان . والقوى الحربية التي كان
يتألف منها جيش فرنسا والروسيا المتحد كانت تباه ٥ ملايين من الرجال
بينما كانت هذه القوى لا تتجاوز عند ألمانيا والنمسا والمجر ٣٣٥٨٠٠٠

رجل . والاسطول الالماني كانت نسبته الى الاسطول الانجليزي كما سلم أخيرا الاميرال تربس كنسبة ١٠ الى ١٦ فضلا عن أن بريطانيا العظمى كانت تشعر بأنها من التفوق بحيث تستطيع أن تحمي شواطئ فرنسا الشمالية والغربية . وفي الشمال كان قد اتفق على أن تتعاون السفن الانجليزية مع السفن الروسية أما في البحر الابيض المتوسط فكان هنالك الاسطول الفرنسي الذي كان بلا ريب متفوقا على الاسطول النمسي . واذن فقد كان ثمة تفوق هائل في ناحية الوفاق الثلاثي . ولقد زاد في اختلال التوازن بين الفريقين في غير مصلحة دول الوسط ان النمسا والمجر كانت تعاني في الواقع مرضاً داخليا عضالا ، فقد كانت الشعوب التي تضمها متنافرة تريد الانقضاء من حولها ، وكانت فكرة الاتحاد القومي — تلك الفكرة العظيمة الموفقة التي أوجدت الامبراطورية الالمانية الحديثة أيضا — تهز في الكيان المفتعل الذي كان يؤلف دولة هابسبورغ هذا مسموعاً ، فكانت روسيا تقدر التداعي النهائي لأراضي الطونة وتضع الخطط السمحة لتوزيع تلك الاراضي . فاذا أضفنا الى ذلك ضعف مركز المانيا الجغرافي المحسوس لان حدودها في الشرق والغرب طويلة مفتوحة ، ظهرت لنا قوة الفريق الآخر أوضح وأجلى .

وللحياة السياسية في كل مكان قانون ثقل يدفع القوي ضد الضعيف وقد كان هذا القانون منذ ١٩١٢ على الاخص سارياً يؤثر في الحالة العامة الى حد ان كل محاولة من جانب دول الوسط للمحافظة على الحالة الراهنة كانت تراها دول الوفاق الثلاثي جرأة وتبجحاً . ولقد أعلن بوانكاريه عقب تسوية مسألة الجنرال ليمان فون ساندروس أن صبر الروسيا قد نفذ وأن أي نزاع آخر سيؤدي الى الحرب . ونسي وهو يقول ذلك أن الانقلاب العام الذي حدث في البلقان كان تحرشاً عظيماً بدول الوسط بينما كانت هذه تجتهد في الواقع في انقاذ مايمكن انقاذه وليس أسخف من الزعم بأن دول الوفاق الثلاثي كانت تخشى كتلة دول الوسط . حقا لقد كانت المانيا مسلحة تسليحاً

قويا بديماً لكنه ماقيمة هذا بأزاء الاجراءات التي كانت دول الوفاق تطوقها بها ! لقد صاحبت بطرسبرغ مباهاية عند ما أرادت بعض الدوائر الاشتراكية منم اجهاد قوى الجمهورية الدفاعية تقول : « اننا مستعدون ويجب أن تكون فرنسا أيضاً مستعدة »

لقد كان الجو كله مفعماً بسوء الظن والارتياب المتبادل والمغالاة في الشعور بالعزة القومية ، فالحرب كانت قائمة في صورة ما في تلك الاذهان المتهتجة . وقد زعموا أنهم يتسلحون للمحافظة على السلام ، والواقم انه كان من وراء ذلك الزعم سعي حثيث في سبيل الحصول على ما يضمن لهم التفوق والغلبة اذا ما نشب ذلك الصدام المسلح . ولقد كانت حجة الفرنسيين في جعل الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات — وهو ما لم يستطع الشعب الفرنسي احتمالها كما قال وزير بلجيكا المفوض في باريس — ان المانيا كانت قد قررت في نفس الوقت تقريباً زيادة جيشها . وقد قررت فرنسا في تلك المدة للخدمة العسكرية دون أن تتسائل هل تنفض عن كاهلها اعباء تلك الخدمة أم تستخدمها في الضربة التي تضربها في الحرب . وزيادة الجيش الالماني أمر كان قد اقتضاه الضعف الذي بدا على موقف النمسا والمجر في البلقان . وهكذا كان الفريقان يتباريان دائماً في اجهاد انفسهما حتى باتت القارة كلها من حدود انكلترا الشمالية الى البحر الابيض المتوسط ، ومن سيبيريا الى المحيط الاطلنطيقي أشبه بمعسكر تتصاعد منه رائحة البارود . وشرارة واحدة كانت خليقة أن تحرق المخزن كله وقد قادحها صيف سنة ١٩١٤ فكان انفجار لم يعرف رعبه تاريخ الانسانية قبل ذلك الحين .



٦

نُشُوب الحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ

في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ قتل في ساراجيفو عاصمة البوسنة ولى عهد النمسا والمجر فرانتس فرديناند وزوجته ، وكان قد ذهب الى تلك الجهة ليشترك في المناورات . فأما قتلته فكانوا من حيث تبعيتهم من أهالى مملكة الطونة لكنهم من حيث الجنس والقومية صربيون . والمعرض على الجريمة هو ، كما ثبت فيما بعد ، رئيس قلم المخابرات فى هيئة أركان حرب صربيا الميرالاي ديمتريفتش ، وكان هذا الوطنى المتعصب اذ ذاك منتحيا الى جمعية اليكسندر الكسوف السرية — تلك الجمعية الصربية القوية الكبيرة التى كانت قد أخذت على نفسها أن تعمل بكل وسائل الدعاية والعنف على تحقيق فكرة صربيا العظمى ومن مقتضياتها ضم البوسنة والهرسك قبل كل شئ . وهنالك دلائل بعينها على أن أنصار هذا الرأى كانوا يحسون من الغراندوق فرانتس فرديناند على الاخص عرقلة مساعيهم الطموحة ويجدون فيه عقبة كأداء فى سبيل تحقيقها لانه كان يفكر فى اجراء اصلاح سياسى فى النمسا والمجر استبعادا للمنازعات القومية داخل حدودها . كان يريد أن يضيف الى المملكة الثنائيه التى كان مظهرها انضمام النمسا المستقلة الى المجر المستقلة — فريقتا ثالثا مستقلا من أنحاء الامبراطورية المأهولة بالسلافيين ليزيد بذلك رابطتهم بالكل احكاما . بيد أن بعث الروح فى سلطان هابسبورج القديم وتقوية هذا السلطان من الداخل كان يتعارض بطبيعة الحال مع مساعي تلك القوى التى كان الغرض من توسعها هو ، على النقيض مما تقدم ، انحلال مملكة الطونة . والى هذه القوى كانت تنتمى فى الصف الاول جمعيات صربيا الكبرى السرية التى ازداد نفوذها فى بلادها ازديادا كبيرا من جراء الحروب السعيدة التى خيض غمارها فى السنوات الاخيرة . ولقد بلغ من نفوذ هذه الجمعيات ان نفس حكومة بلغراد ما كانت لتستطيع الوقوف لاعمالها وحركاتها وقفة جدية ، لو أنها حدثت نفسها بذلك . فقد كانت وزارة

باستش التي كانت بيدها مقاليد صربيا السياسية حينذاك تعلم بالجريمة المنوية
لكنها لم تجرؤ على أن تتخذ اجراءات فعالة لاحباطها . وليس ثمت مطعن
في أن ديمترييفتش كان في الدور الهام الذي لعبه على اتصال وثيق بالملحق
الحربي الروسى في بلغراد بحاصة اذا ذكرنا الدور الخطير الذى قامت به وكالة
الروسيا السياسية منذ ابتعاث هارتفيج الى صربيا .

وقد رأى رجال فينا أنفسهم حيال حادث مزعج حاسم اذ أردت ولى
عهد امبراطورهم الموهوب فرانسوا جوزيف أيدي القتلة ، وأصبحت الملكية
نفسها بضربة وهى التي كانت الضمانة الاخيرة للمأمونة لئلا تسلك أجزاء الامبراطورية
المتطاحنة من جراء نزاعاتها القومية . وهى ضربة أصابتها من تلك التيارات
التي كانت تعمل منذ زمن مديد على تحطيم ذلك الكل . واذن فقد كان أهم
عصب حيوى للدولة مهدداً . حتى الكتاب الازرق البريطانى قد سلم صراحة :
« بان النمسا قد استفزت . وكان يحق لها أن تشكو من حركة شعبية خطيرة
ضد حكومتها » . فاما أن صربيا كانت توجه هذه « الحركة الشعبية » وتديرها
فامر كانت تعلمه فينا علم اليقين من تجاربها المرة التي دامت عدة سنين .

لذلك قررت النمسا أن تستجيم نفسها للعمل . وكانت تعلم بالاريد أن برلين
لم تكن الى ذلك الحين توافق كثيراً على عمل سياسى موجه ضد صربيا . فقد
ثبت أخيراً بمناسبة مقابلة تمت في ١٣ يونيه سنة ١٩١٤ بين الامبراطور غليوم
والفرانكوف فرانتس فرديناند في كونوبشت أن المانيا لم يكن ليعتمد عليها بحال
من الاحوال في عمل كهذا . فلما أن وقع هذا الحادث رأت النمسا في وقت
كان لا يزال فيه أثر الجريمة ووقعها حياً في النفوس ، في وقت كان فيه
العالم أجمع يراها عملاً مقزماً — في هذا الوقت رأت النمسا أن تبتعث الكونت
هيوس الى عاصمة الامبراطورية الالمانية ليحصل على موافقة ولاية الامور على
عمل ضد الجارة الخطرة . وقد قدم بهذه المناسبة من وزير الخارجية النمساوية
اذ ذاك الكونت برشتولد مذكرة كانت مكتوبة من قبل وكان الباءت

الاكبر عليها موقف رومانيا المنطوي على التردد . وهي مذكرة تناولت الحالة في بلاد البلقان وارتأت العمل على ضم بلغاريا الى دول الوسط بمحاالفة ليستطاع بذلك موازنة الدول الواقعة تحت النفوذ الروسى . وفوق ذلك فقد نوه الامبراطور فرانسوا جوزيف فى كتاب بخط يده بان السياسة التى ينبغى اتباعها فى المستقبل يجب أن ترمى الى « عزل صربيا وتصغيرها » وقد وافقت الحكومة الالمانية فى ٥ يولييه على وجهة النظر هذه بقضها وقضيضها ، لانه لم يكن يسعها أن تتجاهل أن النمسا والمجر كانت مهددة من ناحية تلك الحركة التى كان يقوم بها أنصار الجامعة السلافية من الروسين والصربيين . لكنها أعلنت انها لا تستطيع أن تتخذ موقفاً حيال المسائل المتعلقة بين فينا وبلغراد بحال من الاحوال وان كانت ستقف الى جانب النمسا والمجر عملاً بواجبات التحالف واخلاصاً للصداقة القديمة . وهذا تأكيده كان يرى لازماً ومتفقاً مع الموقف الذى اتخذ الى ذلك الحين حتى لا يداخل الحليفة أن المانيا تريد أن تتركها وشأنها . وهذا ماظلت المانيا تفعله منذ سنة ١٩٠٨ فى كل الازمات تفادياً من فقدان الصديق الوحيد المضمون . واذا كانت المانيا قد أطلقت الآن لمملكة الطونة حرية العمل ضد صربيا فقد حدث هذا لبواعث مختلفة منها : ان الامبراطور غليوم على الخصوص كان يعتقد مغالاة منه فى تقدير الشعور بالتمسك بين الاسر المالكة أن الملوك الآخرين والحكومات الاخرى فى أوروبا سترى فى مقتل ولى العهد سبباً كافياً لعمل تأديبى تقوم به الامة المجنى عليها . وفيما عدا ذلك فقد كانت المانيا تتوقع أن يبقى الخصام محصوراً بين النمسا وصربيا ، معتقدة أن روسيا لم تكن قد انتهت بعد من تسليحاتها . وفوق ذلك فقد كانت المانيا ترجو وملؤها الثقة ألا تشترك انجلترا فى حرب تدور بين روسيا وفرنسا من جانب ودول الوسط من جانب آخر وبذا تتوقع الا تذهب باريس وپترسبورج الى أبعد مدى . هذا الى أن اتفاقاً بين لندن وبرلين على المستعمرات البرتغالية

بمسكة حديد بغداد كان في ذلك الحين معدا للتوقيع ترى فيه وزارة الخارجية الألمانية ضمانا لتحسين العلاقات الألمانية بالجزر البريطانية .
وهذا الحكم على الحالة العامة كان أكبر خطأ ارتكبه مصرفو أمور ألمانيا السياسية فانهم قللوا من شأن اتحاد الطرف الآخر وتصميمه .

كذلك ساسة فينا ارتكبوا اخطاء باهظة فبدلا من أن يستغلوا الانفعال العام والاستياء من جريمة ساراجيفو ويعملوا في الحال أمرت النمسا والمجر باجراء تحقيق قضائي في الجريمة استغرق أسابيع عديدة فاضاعت بذلك فرصة الحالة النفسية التي كانت في مصلحتها وساعد الزمن مناصري صربيا .

وفي ٢٠ يولييه وصل بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية الى بطرسبرج في زيارة كانت مقررة من قبل . وما في أيدينا مما يتناول وصف اقامته في العاصمة الروسية ، اقامة استغرقت ثلاثة أيام ، يدل على أن رغبة شديدة في القتال كانت تسود بالفعل دوائر نافذة السكامة على نهر النيفا . فان كريمة ملك الجبل الاسود الغراندوقة أناستاسيا حدثت سفير الجمهورية باليولوج في الحدى الولايم بان أباهما أبرق يقول ان الحرب ستنتشب قبل آخر الشهر ، ثم أضافت الى ذلك قولها « انه لن يبقى من النمسا شيء ... وأنتم (أى الفرنسيون) ستستردون الاراس واللورين ... وسنقضى على ألمانيا » أما بوانكاريه فكان مهمما بأن يؤيد روسيا في موقف حازم ، وقبيل سفره أكد وزعماء روسيا « التعهدات التي تفرضها المحالفة على كلا البلدين (الروسيا وفرنسا) تأكيدها رسمياً » وبذا عرفوا في بطرسبرج ان فرنسا مستعدة لامتناساق الحسام اذا هماً أقصى النزاع النمساوى الصربى الى حرب أوروبية تنشب اذا لجأت روسيا الى سلاحها انتصاراً لصربيا .

وفي مساء ٢٣ يولييه قدم في بلغراد انذار النمسا النهائي الى صربيا . وكان تحتوى على طائفة من المطالب والاجراءات مصوغة في قالب شديد اللهجة وموجهة ضد الدعاية المعادية للنمسا وضد الجمعيات المجرية ومن ساعدوا مساعدى

قتلة ساراجيفو . وكان حفوى هذا الانذار قدماً بلغ برلين بتفاحيله قبل تقديمه بأربع وعشرين ساعة مما جعل من غير الممكن محاولة التأثير على النمسا . وفي ٢٥ يوليه وفي الساعة السادسة مساء جاء رد الحكومة الصربية وكان مصوء في قالب ينطوى على الفطنة والمهارة الزائدة فقد قبلت تلك الحكومة جميع مطالب الانذار النهائي تقريباً ولكن في الغالب مع شىء من التشذيب يراد به تخفيف الاجراءات المطاوعة تخفيفاً كان في بعض المواضع بمثابة روغان من تلك الاجراءات . وقد رفض المطالب الذى فرضت فيه النمسا اشتراك موظفين من جانبها في التحقيق الخاص بالقتلة . وهكذا كانت المذكرة الصربية لمن يتبينها لاول وهلة قبولاً تاماً للمطالب المقدمة حتى أن الامبراطور غليوم رأى اذ ذاك انه قد زال بها كل سبب للحرب . لكنهم في بلغراد نفس كانوا كما يظهر يرون غير هذا الرأي اذ أنه قبل تقديم الرد السالف الذكر بثلاث ساعات أعلنت التعبئة الصربية لانهم كانوا يتوقعون أن فينا لن نرضى بردهم وكانوا مصيبين في تكهنهم ، فقد غادر الوزير النمساوي المفوض بلغراد وصدر الامر في منتصف الساعة التاسعة بالتعبئة الجزئية ضد صربيا . أما صربيا التى باتت من ذلك الحين مهددة من ناحية جارتها الكبيرة فقد تعزت في ساعة الضيق بأمر هام بل حاسم هو أن وزير خارجية روسيا سazonov كان قد صرح فعلاً في ٢٤ يوليه بان النزاع القائم بين فينا وبلغراد مسألة أوروبية وأن روسيا لن تطبق عدوان النمسا والمجر وقد نشر هذا التصريح عقب ذلك بقليل في بلاغ رسمى . وأكثر من المحتمل أن بلغراد تلقت تأكيدات بهذا المعنى . وفي ٢٤ يوليه نفسه وضع مجلس الوزراء الروسى نصب عينه الاستعدادات الحربية الاولى . وفي ٢٧ يوليه رفض سazonov كل محاولة من جانب باريس للتأثير في موقفه بالاعتدال . وهكذا حال الخلاف بين البلدين مسألة تتناولها الوزارات جميعاً ، ذلك أن دول أوروبا كانت كما نعلم مرتبطة بعضها ببعض بواسطة محالفات يمكن أن تجر كل واحدة

منها الى حرب عامة اذا حدث احدها من نفسها بحمل سلاحها انتصاراً لجانب ما والسبب الذي من أجله تدخلت الدولة السلافية العظمى ظاهر ، فلو ان النمسا والمجر وافقت إلى ضرب صربيا ضربة قاضية لحدث للنفوذ الروسى في البلقان — ذلك النفوذ الذى قام على حروب سنتى ١٩١٢ و ١٩١٣ — رد فعل محسوس ان لم يلحقه القضاء . واذ ذاك يصحج عمل السنين الاخيرة ضرباً من العبث . وقد تبرأ مملكة الطونة فنتداعى دعامة آمال الجامعة السلافية وأعمالها في الشرق الادنى وهي صربيا

ولقد كانت الحكومة الالمانية واقعة إلى حد ما بين نارين : فمن جانب روسيا المهددة ، ومن الجانب الآخر حليفها التى دفعته الحوادث الى الاقدام على عمل قاس — تلك الحليفة التى سمح لها فى شىء من عدم الحيلة وقلة الحذر بالاستقلال فى العمل .

وقد نشطت لندن وبرلين لاتقاء أسوأ الاحتمالات ففي ٢٥ يولية اقترح وزير خارجية بريطانيا أن تتوسط المانيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا لدى فيينا وبطرسبرج ، فوافقت الحكومة الالمانية وأكدت من جانبها — لكي تهدى من روع روسيا — ان مملكة آل هابسبرج لا تنتوى المطالبة بشىء من أملاك صربيا أو بعبارة أخرى الافتئات على حجم الدولة المحسوبة على روسيا . وفى ٢٦ يولية استبان غراي تردداً عند مادعا إلى عقد مؤتمر في لندن يبدى رأيه ايضاً فى النزاع القائم بين مملكة الطونة وصربيا . وهذا أمر لم تكن المانيا تستطيع قبوله لانها كانت ترى فى هذا النزاع مسألة قائمة بذاتها لكنها عوضاً من ذلك وافقت فى ٢٧ يولية على نصيحة تلقتها من بطرسبرج من سفيرها وسازونوف معاً وكانت هذه النصيحة تقضى باجراء محادثات مباشرة بين الحكومتين الروسية والنسوية كذلك أحوالت المانيا على فيينا اقتراحت جديداً من جانب الانجليز باعتبار الرد الصربى أساساً لمحادثات تدور واصلتها به خيراً . وفى تلك الاثناء كان سفير المانيا فى لندن قد بعث يقول انه إذا لم

تتساهل مملكة الطونة فلا تعتمد برلين — وهذا ما قاله وزير الخارجية البريطانية — على عطف إنجلترا ومؤازرة بريطانيا . وكان هذا نذيراً جديداً بخطر الحرب العالمية إذ أدركت ألمانيا ان بريطانيا العظمى ايضاً تريد في ظروف معينة أن تتخذ على الأقل موقفاً غير ودي . وقد وقع في نفس السفير الروسي من موقف غراي حينئذ ان اعتماد برلين وفيينا على حيدة إنجلترا لم يعد ذا أساس .

على انه قد حدث في ٢٨ يولييه ما غير الحالة مرة أخرى إذ اعلنت النمسا الحرب على صربيا . ولكي تمحو ألمانيا دون وقوع ارتباكات جديدة اقترحت أن تنوه مملكة الطونة من نفسها لدي بطرسبورج بأنها لا ترمى الى الاستيلاء على أرض صربية وانها ستقف الحرب يلوغ بلغراد كما تظهر بذلك ان الحملة انما كانت لتأديب الجارة الشكسة .

وقد وافق غراي أيضاً على هذا الرأي الاخير لكن اجراءات من جانب روسيا كانت قد سبقت الخطوة التي خطتها النمسا والمجر فزادت في خطورة الحالة . فانه في ٢٦ يولية أمرت بطرسبورج بالاستعداد للحرب في كافة أنحاء روسيا الاوروبية ووصلت الى برلين أخبار متواترة عن تنقلات للجنود الروسية وأمور أخرى تبعث على الريبة وتحمل على الاعتقاد بأنهم في بطرسبرج قد اتخذوا المدة لشر احتمال . كذلك كانت الحال مع الاخبار الواردة من فرنسا . وقد تلقى سفير ألمانيا في بطرسبرج في ٢٩ يولية أمراً من حكومته بان يلفت سazonوف بصفة جدية الى أن المضي خطوة أخرى في سبيل اجراءات التعبئة سيحمل ألمانيا على حشد جيشها أيضاً . وفوق ذلك فقد أبرق الامبراطور غليوم الثاني الى القيصر يرجوه أن يعدل عن كل اجراء مهدد ، وبذلك أمكن على الأقل أن يسحب نيقولا الثاني الامر الذي كان قد أصدره بالتعبئة العامة وان يأمر فقط بتعبئة جزئية ضد النمسا . لكن الحجر لم يقف رغم هذا بل ظل يتدحرج . فانه في نفس الوقت جاء من لندن

ان غراي أعلن على سبيل التحذير انه قد يسع بلاده أن تقف على الحياد في حرب تنشب بين النمسا والروسيا لكنه اذا دخلت المانيا وفرنسا في الحرب فستجد نفسها مضطرة الى اتخاذ قرارات سريعة . من ذلك الحين ضاقت وزارة الخارجية الالمانية همتها في الضغط على فيينا والنصح لها بالاعتدال فلم تلتزم فقط باجراء مفاوضات بل أكدت ايضاً أنها ترفض أن تجرها فيينا بسهولة الى حرب عالمية . وقد اجابها النمسا جواباً نصف مرض اذ أبدت استعدادها للتصريح بأنها قد صرفت النظر عن الاستيلاء على ارض صربية .

لكن الأفق كان يزداد ظلاماً فان سازونوف ارتأى في ٣٠ يولية التوسط وطلب أن تخفف النمسا بلاغها النهائي الى الصرب . وكان نفسه لا يمتقد في امكان تنفيذ هذه الفكرة لانه بعد ذلك ببضع ساعات تمكن من اقناع القيصر بان يأمر بعدم الرجوع في التعبئة العامة وبذا وقم الحذور ولم يعد ثمة أمل مافي نجاح أي مسمى لتجنب الكارثة . فقد عقدت روسيا النية على ان تحل النزاع بحمد السيف لان التعبئة العامة كان معناها عقد النية على الحرب .

ولقد جاء بعد الاوان خبر مؤداه ان النمسا تريد الدخول في محادثات مباشرة مع بطرسبرج . كذلك جاء بعد الاوان كل مسمى آخر لوقف الآلة الحربية التي كانت قد أديرت . ولقد جاهدت كل من حكومتى برلين ولندن جهاداً شديداً لمنع المصاب لكن الفصل في تلك الساعة لم يكن للمشاورات السياسية بل كان لحكم الاراء العسكرية . وهذا الحكم كان قد اقتضاه من جانب الوفاق الثلاثي ما عقد الى ذلك الحين من اتفاقات وما مر من حوادث . فاننا نذكر ان بوانكاريه فسر رأي حكومته في خريف سنة ١٩١٢ بان على روسيا أن تخطو الخطوة الاولى وان فرنسا مستعدة لان تقوم في تلك اللحظة بواجب التحالف متى ما استبان تدخلا حريياً من جانب المانيا لمساعدة النمسا فاما الخطوة الاولى فقد خطتها روسيا بالتعبئة العامة . وقد تلا التعبئة الجزئية

التي أمرت بها روسيا ضد النمسا أن أمرت فرنسا في ٣٠ يولية بحراسة الحدود فلما بلغ باريس خبر التمهئة العامة اجتمع مجلس وزراء فرنسا في مساء ٣١ اغسطس اجتماعاً خلص نتیجته وزير حربیة فرنسا ملحق روسيا العسکری حوالی منتصف اللیل بقوله انه ان حكومة فرنسا قد صممت علی الحرب . ولما كانت المانيا قد اعلنت عصر ذلك الیوم « حالة الاحکام العرفیة » فقد بات متوقعا ألا تترك النمسا والمجر وحدها تحارب روسيا .

وقد كانت أصعب مهمة هی العمل علی کسب جانب انجلترا بادخالها فی الحرب وقد لفت السفير الروسی فی لندن بنکندورف فی خریف سنة ١٩١٢ نظر حکومته الی ان بریطانيا العظمی يمكن کسبها وحمليها علی الاشتراک فی الحرب إذا كانت هذه الحرب تصبح بعمل فعال من جانب فرنسا حربا عامة تقع المسئولية عن الاعتداء فیها علی الخصم أو بعبارة أخرى علی دول الوسط . وقد تحققت أولى هذه النقط حیثا لم تترك الجمهورية الشک يساور أحد الحظوة فی انها ستب لمهونة صديقتها الشرقیة ونشأت أهمية النقطة الثانية من المركز الداخلي الخاص الذی كانت فیها انجلترا . فان غرای لم یکن قد نسی ما خبره فی الاسابيع الی تلت الازمة المراكشیة الثانية . ولما کان یحتمل وقوع مشاكل أوروبية کان غرای یشير بعبارة جلیة الی أن کل شیء یتوقف علی الکيفية الی تنشأ بها هذه المشاکل إذ كانت امته لا ترى الحرب ضرورة لازمة إلا اذا وقع الاعتداء من جانب دول الوسط . وقد کان موقفه فی خلال الایام العصیبة الی تلت ٢٣ یولية سنة ١٩١٤ موقف تحیز لحلفاء انجلترا السیاسیین لانه کان علی رغم رجاء المانيا المتکبر حتی اللحظة الاخيرة قد تمأشى أن ینصح لبطرسبرج بالاعتسبال . ولو انه نبه بادیء الرأی بکامة واحدة الی انه یری النزاع الصربی النمسوی مسألة لا یصح للروسيا ان تتدخل فیها لکان الروسیون خلیقین بالتأکید ان ینعموا بالنظر ولما کانوا قد ساروا هذه السیرة العنيفة . ومن جهة أخرى لم یکن یسم غرای أن یعطي تأکیداً

جالياً معيناً بأن الجزر البريطانية ستقاتل مع فرنسا والروسيا جنباً الى جنب لانه لم يكن يملأ يده من الرأي العام في بلاده . ولذا فعلت باريس كل شيء من شأنه أن يسهل عليه الامر ويزيل ترددده فقد نصح للروسيا بأن تجعل اجراءاتها الحربية في طي السكتمان ما أمكن . ولما اتخذت فرنسا اجراءاتها لحماية الحدود صدر الامر بأن يبتعد الجنود عشرة كيلو مترات عن الحدود الألمانية « لاسباب دبلوماسية » ولكي يقع في النفس ان فرنسا مبالاة الى السلام . وقد اشار بوانكاريه فيما بعد الى ذلك الاجراء بصفة خاصة كدليل على ان فرنسا ليست المعتدية وذلك في كتاب بعث به الى ملك الانجليز يرجوه فيه مساعدة بريطانيا العظمى . وهذه كلها مناورات عمل حسابها ودبرت بفطنة .

في تلك الاثناء كان تطور الامور في برلين مما يساعد على المساعي التي أسلفنا ذكرها . فان هيئة أركان الحرب الألمانية رأت نفسها بتلك الاخبار التي كانت ترد تباعاً عن اجراءات فرنسا والروسيا على الحدود الشرقية والغربية حيال احتمال وقوع الحرب في ميدانين ، وهو احتمال كان يلقي على عاتق تلك الهيئة مهمة شاقة جداً وضعتها نصب عينها منذ عشرات السنين . لذلك خفت من جانبها الى اتخاذ اجراءات منعية لمناهضة تلك الحركات الآتفة الذكر . ولم يكن يمكن مواجهة الاخطار الهائلة الناجمة عن هذا التطويق إلا اذا سبقت ألمانيا اعداءها بقدر المستطاع . وهذا الزحف الذي كان يحتمل من جانب روسيا من ساعة لاخرى كان يستلزم وثبة الى الامام . وقد زاد في هموم قيادة الجيش الألماني ما ظهر من أن فرنسا لم تكن تستطيع أن تتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة ضد روسيا في حين أنها تسرعت في مسلكتها نحو صربيا . وقد ردت فينا على التعبئة الروسية الجزئية ضد مملكة الطونة بالتعبئة العامة التي لم يصدر الامر بها إلا في ٣١ يولية . أما القيادة الألمانية العليا فقد طالبت في ٢٩ يولية إعلان حالة الاحكام العرفية فرفض الزعماء السياسيون

طلبها وظلوا يرفضون الى يوم ٣١ يولية حيث أجابوا الرجاء لما أن زال كل شك في التعبئة الروسية العامة . ولقد أخفقت كل تحذيرات الامبراطور والمستشار الامبراطوري لبطرسبورج كما ضاعت سدى كل مساعي لندن . وهكذا خفقت أصوات الساسة بين قعقة الاسلحة التي كانت تتزايد شيئاً فشيئاً .

وفي أول أغسطس أمرت فرنسا في الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم والمانيا بعدها بساعة بالتعبئة العامة . وفي مساء نفس اليوم أعلنت الحكومة الالمانية الحرب على روسيا . وفي مساء ٣ أغسطس أعلنتها على فرنسا وقد كان لامناس من هذه الاجراءات للضرورات الحربية الآتية الذكر . وبذلك أتيحت لباريس ولبطرسبورغ الحجة المرومة للظهور بمظهر المعتدى عليهما وكانت الخطة الحربية الالمانية الموضوعة من عشرات السنين تقضي في حالة ما اذا نشب القتال في ميدانين ، أن تخترق بلجيكا المحايدة لانه بهذه الطريقة وحدها يمكن صد الجيش الفرنسي على عجل وهذا ما كان يرتئيه الفنيون . ولم يكن الفريق الآخر يجهل هذا الامر بل كان يعلمه حق العلم ويتوقعه منذ سنة ١٩٠٦ . وفي سنة ١٩١١ كتب ايزفلسكي السفير الرومى من باريس يقول : « انهم هنا يعتقدون من زمن طويل ان المانيا لاحالة من أن تخرق حياد البلجيك إذا نشبت حرب جديدة بينها وبين فرنسا » . وإذن فقد كانت تسليحات الانجليز والفرنسيين المشتركة صادرة عن هذا الاعتبار . لكنه لما طلبت برلين من بروكسل موافقتها على اختراق بلجيكا أتيحت لغراي في لندن وسيلة لترغيب الشعب البريطانى في الاشتراك في الحرب ضد دول الوسط فأكد « أن بريطانيا العظمى يجب أن تسد تلك الثغمة التي أحدثها الامبراطور غليوم بتلك الصورة المخجلة وأن تنصرف لحق الأمم الصغيرة ذلك الحق المقدس » . وهكذا أعلنت الجزر البريطانية الحرب على المانيا في ٤ أغسطس . وخليق بمن يتأمل الحوادث التي أفضت الى نشوب الحرب العالمية ، أن

يصل الى أن تلك الحرب كانت نتيجة مشئومة محتومة للحوادث التي سبقتها .
وقول القائل « ان الصدفة شيء غير موجود » تؤيده حياة الشعوب كما تؤيده
حياة الأفراد . فكارثة ١٩١٤ لم تقع بغتة ولم تنشأ من العدم بل جاءت نتيجة
محتومة لتطور جليل بأسره . وهي بعد كل شيء ليست عملاً شريراً من أعمال
فريق بمفرده من رجال الساسة والحرب أرادوا به الفتح أو اطفاء شهوة
الانتقام بالغاً ما بلغ عمل هذا أو ذاك من الرجال المسؤولين في التعجيل بالحرب
الغاصبه عمداً أو غير عمد . فان هؤلاء الافراد ليسوا على كل حال الا أبناء
الفرس الذي ما كانوا ليحققوا شيئاً من رغباتهم لولا طبيعته وأسلوبه . وما كان
ليسمع أحداً اشمال النار في قارة بأسرها لو لم تكن الريح مؤاتية . وهذه الريح
كانت روح ذلك المصير الذي ينهته المرء « بالاستمرار » ، كانت الرغبة في التوسيع
والنمو والسلطان ، تلك الرغبة التي كانت تخالج أنفس الدول الأوروبية من
زمان طويل . فجهاد الكل ضد الكل — ذلك الجهاد الذي نشب في أوائل
أغسطس سنة ١٩١٤ في صورة مخيفة — كان موجوداً دائماً ، وان كان بشكل
أخف جداً ، يسطر ظلاله الكثيفة التي ازدادت ظلاماً مع الأيام على فريق من
البشر لم يكن نبي عن التقدم والانبعاث . وقد بدأ هذا الجهاد بطبيعة الحال
في الخارج بعيداً وفي قارات أجنبية كانت الامم الكبرى تسمى الى أن تجتمع
فيها ما يمكن جمعه . ثم دقت الساعة التي انتقل فيها هذا الجهاد الى أوروبا نفسها
فانقسمت فريقين وأخذ الفريق الأقوى ينبعث ضد الفريق الضعيف . فعندما
انفصل النهائي قريب الوقوع وحلت الضائقة لما ان حاول الفريق الاضعف في
شخص النمسا والمجر أن يرفع الضغط المتزايد عن مركزه الذي كان قد ساء كثيراً
لكن الفريق الآخر كان قد بات أقوى شكيمه وأكبر توفيقاً من أن
يسمح بذلك .

وكان ما تشهيه المانيا من التوسيع يرمى فيما عدا شيء من المستعمرات
قليل بالنسبة لما يمتلكه الغير — الى ادخال آسيا الصغرى في دائرة نفوذها

والتوسل الى ذلك بمشروع سكة حديد بغداد . لكنه لما كان هذا لا يتم لها الا بأن تكون البلاد الواقعة في طريقها وهي النمسا والمجر وتركيا خليقة أولاهما بالحياة سليمة ثانيتهما من الامراض ، لم يكن بد من أن تعمل المانيا على المحافظة على الحالة الراهنة في أوروبا لاعلى تغييرها . وإذن فقد كانت سياستها غير قائمة على العمل على احداث الانقلابات كما كانت الحال مع طائفة مهمة من دول الخصوم . فقد أرادت روسيا السيادة في الشرق الادنى سيادة لا سبيل الى تحقيقها الا بالسعى الحثيث وراء حل النمسا والمجر ونسف الباب العالي . وقد عنيت فرنسا باستغلال هذا السعي من جانب حليفها الشرقية حتى اذا ما دقت الساعة أمكنها مناقشة المنتصر في حرب السبعين الحساب . أما انكلترا فقد أحست من نفسها ميلا متزايدا الى التخلص من منافستها المانيا التي أخذت تنمو وتعتظم كدولة بحرية وذلك عند ما تضايقها جاراتها في البر . وهكذا كانت نزعة دول الوفاق الاستعماري تتجه شيئاً فشيئاً الى الاعتداء . ولقد كانت الاغراض التي رمت اليها دول الوفاق من الحرب والتي ظهرت جليلة بالنسبة لروسيا وفرنسا بسرعة على أثر ابتداء الصراع المخيف تقول — كانت هذه الاغراض هي القضاء على المانيا وتحطيم النمسا والمجر بفتح روسيا للاستانة ، وغزو فرنسا للالزاس واللورين

وقد خرج المتفوقون في العدة من الحرب العالمية منتصرين فكان القول الفصل في ذلك العراك الهائل للارقام والقوة المادية . وهذا هو الظفر الذي أصابه عصر الاستعمار .

